# في الشعر الافريقي المعاصر

جمال أحمد

تنشر الصحف في العواصم الافريقيةوفي باريس شعر ايتميزبافريقيته ،وعلى الذين يرتابون في وجود شخصية افريقية ان يقرأوا بعض هذا الشعر فهو تعبير عن روح افريقيا الحديثة، وعن تطلعها الجديد ، وعن الذي ترضاه والذي تأباه . ولا على القارة ان لم تنجب حتى اليوم شوقيها ،فهي كما تعرف بابل الجديدة : يكتب اهلها بلغات افريقية عديدة وثلاث لغات اوربية هي الفرنسية والانكليزية والبرتغالية ، وسيظل النوابغ من شعرائهم يخاطبون اقاليمهم المفردة الى ان يتاح لهم ما اتيح لشوقي ونازك الملائكة من صيرورة، لانهما كتبا بلغة تشد اوطان العرب كلها ، او يتاح لهم ما اتيح لأودن ودلن طوماس ، لانهما كتبا بلغة تشد طرفي المحيط الاطلسي وتنتشر في بلاد رابطة الشعوب البريطانية ، وما هي بريطانية الا في هذا اللسان الذي به تنطق . ومن شواهد هذا الذي نقول ان الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية مثلا ــ كسنغور وديوب ــ يكاد بعضهم ان يجد طريقه للمختارات العالمية ، بينما الذين يكتبون بلغات الاقاليم لا تعرفهم الا الاقلية من المهتمين بالشعر الافريقي . وقصة اللغة في القارة معضلة ما فرغ لها كثيرون بعد .

وشيء آخر لم يتح للشعر الافريقي ان ينتشر ويزدهر ، هو انه لم يجد طريقه للنشر الا على يد الصحف ، وكلها حديثة العهد . فشعر نيجيريا مثلا ، وهي البلاد التي عرفت بعد ذكر وعز مكاناً في القارة ، لم ير النور مكتوبا الا عام ١٩٤٩ ! جاءها هنري سنونزي محرر « الشؤون الافريقية » يبحث عن آثارها المكتوبة والسارية على الالسن ، فعثر على شعر اثار اهتمامه ، وكان من حمائله ان عرف قراء اللغة الانكليزية ــ فيمن عرفوا ــ شاعر نيجيريا الرائد دنس اسادبيي ، صاحب المجموعة الشعرية الشهيرة الآن ، « افريقيا

تغني » وهي اول مجموعة نشرت في ذلك الاقليم الذي عرف بعضا من اقـوى الشعراء في القارة بعد ان ظهرت « بلاك اورفيوس » صحيفة الفن الخـالص التي تصدر عن دائرة الدراسات العامة في الجامعة في عبادان . وكذلك الحال في الاقاليم الشرقية للقارة والاقاليم الوسطى . كان شعراؤها يكتبون بالسواحلية ، وهي لغة افريقية معربة فـيما يقول البعض وعربية مؤفرقة فيما يقول الآخرون ؛ وكان صعباً ان ينشر هذا الشعر ، ولم يزل كذلك ، الا في ترجمات قليلة لا تنصفها ، فيما يقول الذين يعرفون الاصل .

لكن الحال لم تكن كذلك في الاقاليم التي ثقفت ثقافة فرنسية . فقد عرف الجمهور الفرنسي كثيراً من شعر الزنج في المارتنيك وفي غرب افريقيا وملاقازي : اذ يسرت باريس للمهاجرين من ابناء الاقاليم كل سبيل للنشر ، كما يسرت لهم كذلك المناخ الفكري الذي لا تستطيعه غير باريس ، وتتميز به : عرف عنها الشباب المهاجر مكان الشعر في التعبير عن النفس الانسانية ، وليست صدفة محضاً ان المدرسة الشعرية الذائعة الصيت كانت وليدة مدارس من الشعر عرفتها اوربا اول ما عرفتها عن باريس في العصر الحديث . الزنجيـة ابنة المدرسة الرمزية في شق ، والمدرسة التعبيرية في شق . اذاع خصائصها واقتدارها على التعبير عن الروح الزنجية الطامحة الحانقة اندريه برتون ، كاهن المدرسة التعبيرية وشيخها الاول . وليس صدفة محضا ان ليوبولد سنغور ، اوفر الشعراء الافريقـيين صيتا ، كتب الشعر ونشره باللسان الفرنسي في الوطن الفرنسي ايام كان يعمل في التدريس هناك . على ان تفوق الزنوج الفرنسيين في الشعر على اخوانهم في بريطانيا لا يعني ان هناك شيئا في التربية الفرنسية يعين على الشعر : الله يعلم ان التربة الانكليزية لا تقـل خصوبة عن اختها الفرنسية في هذه السبيل . قلب الحقيقة هو ان فرنسا كانت تريد من نشاطها عـبر البحار ان تخلق افريقيين فرنسيين في كل شيء ، وقـل فرنسيين افريقيين ان شئت : في نبيذهم وشعرهم ولباسهم، ولم تُلقِ لهذا حجاباً بينها وبين ذلك الشباب المهاجر . ومـا كانت انكلترا كذلك : كانت تريدهم افريقيين يتعاونون معها في الادارة والتجـارة والزراعة لتعيش هي رضية سعيدة ، وتبعد الافريقيين عن بداوتهم الاولى ، بقدر يتيح لهم ان يتعلموا ويكدحوا وهم في افريقيتهم لا يبرحونها ، الا اذا اقتضت هذه النشاطات ان يتخلوا عن شيء او آخر يعوق سيرها لامام .

لم يهاجر الى العاصمة البريطانية شباب ليحيا ويرتزق بين الانكليز ، وهاجر لباريس شباب ليقيم هناك ويذوب في الحياة فيها ، ولا يذكر الا من حين لحين وطنه الام واهله هناك . واثار النوابغ من هؤلاء حب وتقدير الطليعة الفرنسية : قرأت هذه الطليعة شعر ديوب واخوانه ، ورأته على ضوئها الثائر . ولن يكتمل بحث عن الشعر الزنجي ان لم يذكر عوارف سارتر عليه : فقد كتب بحثا يقدم به اول منتخبات للشعر الزنجي ، يعد اليوم بدءا للدراسات الشعرية في القارة ، ونافذة مشعة يطل الواحد منها على نوازع الشعر عند الشعراء الافريقيين ، ولا اعرف مقالة لقيت من الثناء والاعجاب ما لقيته مقالته « اورفيوس الاسود » ، ولعل خير شاهد على هذا هو ان الصحيفة الزاهرة التي اشرت اليها من قبل اخذت اسمها من هذا المقال ، ولعبت دورا مركزيا بعد هذا في اذاعة الشعر الزنجي حتى اصبح اليوم جزءاً متمماً للتراث الشعري كله في فرنسا .

للقارىء العربي ان يسأل ، ولا عليه ان فعل ، كيف تأتى للافريقي ان يكتب شعراً استحق هذه العناية من كبار اهل القلم في القارة الاوربية والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ؟ فالثقافة الافريقية ، فيما يعرف الناس ، لم تبتدع الكتابة في الذي ابتدعت من اشياء ؛ لم تعرف الكلمة مكتوبة ، كانت تنقل ما تشاء بين القبائل من رسائل بالطبل خلال الغاب والشجر ، كانت تكتب بالصوت لا بالحرف . فكيف تأتى لثقافة هذا شأنها الاول ان تكتب شعرا حقيقا بان يترجمه الكتاب ويردده القراء ؟ ما عرف الافريقي الشعر كما عرفه الاغريق والعرب وهؤلاء ممن وضعوا الشعر مكانا عاليا في وسائل التعبير عند الانسان . للقارىء العربي ان يسأل عن تقاليد الشعر في القارة الافريقية ، وفي البلاد التي ساقه اليها الناس رقيقا يفلح الارض ، من المارتنيك وجزر الهند وهايتي ـ دعك من الولايات المتحدة . له ان يسأل، ولكنه يخطىء كثيراً ان انتهى الى ان الشعر بضاعة ازجاها الاوربيون اليه ، كما ازجوا السيارة والمشط . لا اقصد بهذا الى القول بان الافريقي يغني قبل ان يلتقي بالاوربي ( والشعر في جوهره غناء ) ، لا اقصد لهذا : فغناء الافريقي يكاد ان يكون اول خاطر يجيء في البال حين يذكر لك اسمه ، لكني اريد ان تذكر شيئاً مما عرفه الباحثون الان عن « القوة السحرية للكلمة » عند الافريقي ، واراني

مغرى هنا بان اعيدك لكتاب « مونتو » ، اي الانسان ، كتاب يعـــده الذين يعملون في حقل الثقافة الافريقية خير كتاب اخرج للناس حتى الان فيموضوعه ، وفيه فصل كامـــل عن سحر الكلمة عند الزنجي .

يحدثك جان في فصله الخامس عن مكان الكلمة عند الافريقي ، ويدلل لك بشواهد ما جمعت على هذا النحو من قبل ، على ان الحرف سبق الخلق في هذه الثقافة ، وينتهي الى القول بان كل « انسان » يملك قدرة اله التوراة الذي قال للنور كن فكان ، ولا يعوقه عن هذه القدرة الا « انسان » آخر اقدر منه على خفايا السحر في الكلمة ؛ يقـول « انسان » للسماء اسقطي فتسقط ، لا يحول دون هذا الا ان « انسانا » آخر ذا حول اطول وبـــاع اوسع قال لها ظلي حيث انت ، فظلت . « الكلمة هي القدرة والقوة » ، يقول شاعر ساحل العاج برناردب داوي ، « انا ابذر الحب بالحرف » ، لا يمكن للكلمة ان تنمو دون عون : « البذر وحده لا يكفي ، فحبة الذرة لا تخمر وحدها وتنمو ، الكلام والغناء يقدران على اعانتها ، لان الكلمة هي التي تحيل البذرة ذرة يأكلهـا الناس ، وتعين الفاكهـة على النمو ، والبقرة على النتاج » . الحرف القدرة والحرف الشعر .

وفيم يكتب الافريقي ؟ يكتب في كل لون من الوان الشعر يكتب فيه غيره : في الطبيعة ، والعلائق البشرية ؛ ولكن موضوعا يستأثر بوجدان الشاعر الافريقي الحديث ، هو هذا الصدام بين افريقيا الطالعة واوربا التي يخالها الشعراء في طريقهم لا تدعهم ؛ يمثل هذا شعر «البلوز» او الشجن عند زنوج الولايات المتحدة ، ويمثله شعر « الزنجية » في عهدها الاول حين كان دعاته ينقمون على الحضارة الاوربية كل شيء ، كما فعـــل ايمي سيزار وسنغور اول الثلاثينات . ولعلي الخص جوهر الامر حين انقل لك بعض الذي كتبه سارتر في هذا الصدد في تقديمه المختار من شعر الزنوج ، قال يخاطب الاوربيين : « ماذا كنتم تريدون للزنجي ان يفعل ، وقد ازاح التاريخ من فمه الكمامة التي كانت تمسكه ؟ احسبتم ان الشفاه السود ستتغنى بعوارفكم عليها ومآثركم الكثيرة ؟ وتلكم الرؤوس التي طحنها اباؤناطحنا في التراب ، احسبتم ، وقد رفعت الان وقد نكست طويـــلا ، ان تروا الاعجاب بكم في اعينها ، وان تقرأوا الحب في وجوهها ؟ لا ، ما فعلت هذا » . وكان سارترفي هذا يكتب عن معرفة لا تخيّل . قرأ في المختارات التي اشرف عليها سنغور قراءة ذكية ، وخلص الى هذا الذي يقوله والى الآراء التي تضمنتها مقدمته . والذين قرأوا هذه المختارات من شعر

الزنوج في غرب افريقيا وملاقازي رأوا ولا شك العنف الذي يتسم به بعض هذا الشعر الثائر ، « ورأوا ايضاً هذا التمجيد للسواد وكل ما اتصل بالسواد ، لان اللون كان الفرق الملموس بين الزنجي وسائر الناس ، ما تميز احد عليه الا بلونه » ، وكان حقاً ان يشغل اللون عليه عقله وعاطفته .

تمثل هذه المختارات الفترة الحانقة الحاقدة من تطور الفكر الافريقي ، ولكن الشعر مشى بعيدا منذ ذلك الحين . هدأت عاصفته الا قليلا ، واتجه لغير الحنق والحقد ؛ ترك التمجيد الخطابي للقارة وتراثها القديم ، وشرع يكتب اليوم في هدوء الواثق ، يأخذ على الاوربي ان جهله وان سخر من حياته ، ويشير عليه ان يتعرف للطمأنينة التي تسود الحياة الافريقية والحيوية الخصبة التي يجدر بالاوربي ان يقتبس منها ان اراد خلاصا لروحه المكدورة المتعبة من فعل السنين وسحق الآلة ؛ ويكتب في المواضيع الانسانية البحتة التي لا يكون شعر الا بها ان اراد ان يستأهل اسمه. وسترى قليلا من هذا الذي نقول في النماذج التي سنضعها الآن بين يديك ، واولاها لشاعر من نيجيريا ، والثانية لشاعر من السنغال هو رئيس جمهوريتها ، والثالثة لشاعر من ملاقازي .

# غبرييل أوكارا
## وضحكتَ ثمّ ضحكت

اغنياتي لديكَ سيارة ،
خنقتْها سعلةٌ
فهي تدورْ ،
وضحكتَ ثم ضحكتْ .
ومسيري فوق ارضي قبل ميلادي
كان لا يسمو لادراكِكْ ،
وهو ادراكٌ محيطْ .
اذْ مسيري غيرُ انساني .
وضحكتَ ثم ضحكتَ ثم ضحكتْ .
من اغانيّ ضحكتْ
من مساري قد ضحكتْ
فرقصت مع دقّ الطبول
رقصاتي وهي سحرية .
وسرتْ في الليل انغامي اليكَ
وهي ترجوكَ : تعالْ .
اصبعٌ في اذنيكَ ،
وعزوفٌ ، ما كفاك ،
رحتَ تغفـو هازلا
وضحكتَ ثم ضحكتَ ثم ضحكتْ .

●

ضحكتَ ثم ضحكتَ ثم ضحكتْ .
لكنّ ضحكَكَ كان ثلجاً ، فتجمّد
في النهاية .
كانت احشاؤكَ هكذا ،
فانظرْ اليها تتجمّد ،
مثلَ ضحكاتك .
واتى صوتك من بعد ، تجمّدْ ،
ثم اذناك ، وعيناكَ ،
لم يعد في الطوق ان تضحك ،
وتدلّى خشباً منكَ اللسانْ .

جاء دوري ، ها أنا اضحك منك :
ضحكاتي ضحكاتٌ صاخباتٌ دافقاتٌ
حيويّة ؛ قهقهاتٌ عاليات
ما رأت ثلجاً يجمّدها .
لا ولا اعرف آلة
خنقتْها سعلةٌ

فهي تدور ،
لا تسير .

ضحكي نارُ العيونْ
قبسُ الارضِ ، لهبٌ من سماءْ
نارُ بحرٍ ازرقَ ، نارُ نهر
يمنع الكلّ الحياة .
من انهر العذاب ، اشجار الخضر ،
من وحوش الغاب ، اسماك المجاري
ضحكتي منها جميعاً .

وهي انْ جئتَ قريباً ، قد تُعين ،
قد تُذيب الثلجَ فيكْ :
فهي حرّى ، وهي جمرُ .
قد تُحيل الصوتَ صوتا وتُعين الاذُنين ،
كلها أسرى ثلوجِكْ .
اقتربْ تفتحِ العينين منك
والشفتين واللسان .
وتواضعتَ اخيراً ، كان اولى من زمان ،
وهمستَ ترجو ، همسةَ الحاني الودود ،
« لمَ هذا ؟ » قد سألتَ
فاجبناكَ نقول :
انتَ لم تنظرْ اخي .
لو فعلتَ يوم رجوناكَ رأيتَ :
انّنا جذوةٌ من ارضنا ،
قطعةٌ لا ننفصم .
تشدّنا اليها هذه الاقدامُ
عارية .
لا حجابَ بينها
لا خفاء .

# ليوپولد سيدار سنغور
# الى نيويورك

نيويورك ـ رأيتُكِ بداهةً فاضطربتُ لهذا الجمال ،
حرتُ في فتياتكِ ، ارنو لسيقانها الطويلة الذهبيّة ،
وراعتْني عيونكِ المعدنية بادىءَ الامر وخجلت ،
ثم انعمتُ عينيّ في بسمتكِ ، انها جليدٌ ، ففهمت .

المٌ ممضٌ في الصدر في الاعماق يخرق كلّ شارع ،
والعيون تظلّلها الكفوف تراعي الناطحات ،
بعيدة خسفتْ وراءها شمس السماء ،
وضوؤكِ كله فوسفورٌ ، وخلالها ابراجُ البيوت
حمراءُ كالغيظ ، كالكبد المُثار .
رؤوسها طعنتْ كبد السماء ، وبجنبها اخواتُها
تعلو وتسخر بالزوابع والعواصف ،
لا تهاب ، عضلاتُها حديد .
واهابها استوى ثم نضج ، ولا تخترقه خارقة .

راح اسبوع واسبوع يليه ، فيهما طرقتُ مانهاتن
وانقضى ثالثٌ من بَعد ،
احتوتني بعدها رجفةٌ
كانقضاض النمر شدّ الجوع اعصابَه ؛
اسبوعان ، لا انهارَ ، لا حقولَ ، لا شجرْ ،
على النقيض ، تَساقُطُ الطيورِ
موتى فجأةً على السطوح المرمدة ،

لوّث الجوَّ الدخانُ ، سممهُ .
اسبوعان ، ما رأيتُ طفلا ، تزين وجهه ابتسامة ،
يدُه في يدي ، يرنو اليّ في شقاوة ، ارنو اليهِ
في حنان .
ما رأيتُ ثديَ امٍّ ، كلّ الذي اراه سيقانٌ من النايلن ،
الاثداءُ لا تعرقُ هنا ولا السيقان ، لا تفوحُ ،
ما سمعتُ مذْ قدمتُ لفظةً حيّة عطوفة ،
الشفاه ها هنا عدمْ ،
والقلوب تُشترى نقداً وعدّاً في الفبارك والمصانع .
لا كتابَ يحمل الحكمة من صدر لآخر ، كلّها ذكية .
ليالي الارقِ ، يا ليالي مانهاتن ،
تتلوين والضوءُ يلهب ظهركِ كالسياط ،
ونفيرُ السيرِ حولنا ، يسوق الليل سوقاً ، لا سلامْ .
كلّها اصواتٌ جوفاءُ ، لا معنى لها ، هباءْ .
والمياه السودُ عكْرى في الانابيب خفيّة ،
تحمل الحبّ عظاماً وجلوداً وقذارة ،
اول الليل نظيفا كان اذْ صنعوه ،
كلّه صحة . وفي الصباح
ما اشبه الامواهَ بالانهارِ
فاضتْ بالجثث ، جثثِ الصغارِ ،
اولادِ الخنا .
نيويورك اسمعي ،
اسمعي ، اقلْ لكِ يا نيورك :
دعي الدمَ الاسود ينساب انسياباً في عروقكْ ،
دعيه ينصبُّ انصبابا في دمكِ ، في كلّ جارحة ،

صدئتْ جوارحك ، أضتْ حديدا . دمُنا
زيتُ الحياة .
الدمُ الاسود ان خلّيتِه يعطي جُسوركِ
حنيةَ الارداف ، اطرى من زواحفْ .
استعيدوا الان آماداً مضتْ
واعيدوا معها العيشَ الجميع
بين اسد الغاب ، ابقارِ القرى ، قشِّ الحقولْ :
كلُّها كانت كذلك .
كنا جميعا واحداً ، لا ترى شقّا ولا فصما بها .
كانت الاعمال شطراً من ذكاء العاملين ،
كلّ فكرٍ بعمل ، كلّ اذنٍ بفؤاد ، ارتباطُ الحسّ بالشارة ،
هذه انهارُكِ تهمس همساً
عطرَ تمساحِها ، وخرافُ البحر اعينُها كامواه السرابْ .
صفارةُ الانذارِ مَن ابدعها ؟ لا ، اكسروها .
افتحوا القلب لابريل ،
انظروا قوسَ قزحه ، انظروا الوانَه ، ازهارَهُ ،
وافتحوا آذانكم ، فوق آذان الجميع ،
تسمعوا صوتَ الاله ،
خلق الارض وابعادَ السماء من ضحكةٍ
في ساكسُفون .
ستّة ايام وراح
يومَه السابعَ يغفو وينام
نومةً عظمى ، كنوم الزنوجْ .
يكفيكمُ ابريل .

## جان جوزف رابرفلر
# لاعبا النّاي

نايك
اقتطعته من ظنبوب عجلٍ ذي خوارْ
وصقلته صقلا على رابية جدباءَ
ساطتِ الشمسُ حوافيها
نايــه
صيغ من قصب يرجف في النسيم

قدّ القدود فيها قرب ماء جارية
سكرتْ باحلام القمر .
تلعبان ، كلّ نايه ، معاً ، في عمق اعماق السماءْ
وكأنما امسكتما بيديكما ذاك القاربَ الدائريّ
انكفا عند شطآن السما ،
وجهدتما ولعبتما تسعيان
تنقذانه من يومه
مصيره :
لكن ،
اتسمع النواحَ في الاغاني الالهة ؟
اتسمعه آلهة الرياح ، آلهة الارض،
ربةُ الشجر ؟
اتسمع الغناء والشجن
آلهة الرمال ؟

نايك
فيه من عجله اثر
تأتيك منه انغام عليها ثورته ،
تجري الى ارض الخراب
وتعود جارية ،
ملفوحة من ظما ، ضامرة من سَغَبْ .
الى اين ، لجذع نخلة
لا ظلّ فيها ، لا ثمرَ ، لا ورقْ .
نايه
لدنة كأصلها القصبْ
تنحني ، ادّها ثقلُ عصفورٍ عبرْ :
ما نفش الريشَ عليها ولدْ ،
ما عبثْ . لكنها غريبة
بعيدة عن كنها
ترعى الاطلالَ ، تبحث عن عزاء ،
لدى المياه الجارية .

نايك يأخذني ونايه
كلّ على اصوله ينتحبْ
ويحملان الندب في انغامكمْ
حزني مريرة .